الفصل العاشر

الرحمن الرحيم

كانت عين صلاح الدِّين على التاريخ عندما أخّر دخوله إلىٰ المدينة المقدَّسة مدةَ يومين؛ بحيث يصادف الدخول يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب سنة 583هـ تشرين الأول/ أكتوبر، 1187م، ففي الذكرى السنوية لمسرى النبي محمَّد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعروجه إلىٰ سدرة المنتهى، عاد الإسلام إلىٰ القدس. وبداخل المدينة جلس صلاح الدِّين فخوراً ومتواضعاً في الوقت نفسه في احتفالٍ حاشدٍ لتقبُّل التهاني. وتجمع في مجلسه المفتوح الأمراء والعلماء والفقهاء والشعراء وأولياء الله الصالحون والزهّاد. وألقى الخطباءُ كلماتٍ في الثناء عليه. وقبَّل بعضُهم أطراف سجّادته، وقدَّموا الهدايا الرمزية، وألقى الشعراء القصائد الرنّانة. وبدا لأحد المراقبين كأنما عرش صلاح الدِّين يسبحُ في بحرٍ من الضوء.

وعلى عكس ما فعله الصليبيّون سنة 1099م ما كانت هناك أحداثُ قتلٍ وفوضى. فالعنف الذي حدث كان مقصوراً على القضايا الأساسية والرمزية. أُقفلت أبواب كنيسة القيامة. وكان بين مستشاري صلاح الدِّين متطرفون أرادوا تخريب الكنيسة، ووجدوا راحةً وانتقاماً في تحريف الاسم من القيامة، إلىٰ «القُمامة». وكانت وجهةُ نظرهم أنه إذا خُرّبت الكنيسة «وهُدمت القبة، ونُبشت

المقبرة، وحُرثت أرضها، وعفت، انحسمت عن قصدها موادّ أطماع الكفار، ومهما بقيت كانت الزيارةُ مستمرة»[1]: فهل تُهدم أَو يجري الاحتفاظُ بها؟ هنا اشتعل النقاش واشتدّ. فلاحظ أمراءُ آخرون أنّ العقيدة المسيحية في التمسّك بالقدس لا تستند إِلىٰ مبنى الكنيسة: «لا فائدة في هدمها. فإنّ متعبّدهم موضع الصليب والمقبرة لا ما نشاهد من البناء. فلو نُسفت أرضها.. لما انقطع عنها قصد أهل دين النصرانية..». وتدخل رجلٌ ذو حسٍ تاريخي عميق، فذكّر بأنّ المسلمين تناقشوا حول المسألة نفسها قبل سقوط القدس سنة 1098م، وتوصلوا إِلىٰ أنَّ الأفضل إبقاء كنيسة القيامة على حالها. ذلك أنّ هدم الكنيسة، أقدس مكانٍ لدى المسيحيين، سيزيد من كراهيتهم للإِسلام والمسلمين، ويزيد في تحريضهم على قَصْدِ القدس مرةً أُخرى، والانتقام. وأصغى صلاح الدِّين إِلىٰ النقاش الدائر بصبرٍ وهدوء؛ لكنه كان قد اتخذ قراره؛ لن تُدمَّر كنيسةُ القيامة. فالمسلم الصالح هو ذلك الذي يحترم الديانات الأُخرى وأماكنها المقدَّسة ومعابدها. وبعد الدخول إِلىٰ القدس أُقفلت الكنيسة لثلاثة أيامٍ فقط، وسُمح للمسيحيين بعد ذلك بالدخول إليها مقابل رسمٍ زهيد.

ووجد الفاتحون أنّ مسجد قبة الصخرة قد تحوّل إِلىٰ كنيسة. كما أنّ المسيحيين بسطوا على الصخرة نفسها الرخام، بحيث لم يعد ممكناً رؤية أثر قدم النبي عند عروجه إِلىٰ السماء، كما أنّ محيط الصخرة ما عاد ظاهراً. وقد بنى المسيحيون على الصخرة حيث القدم قبةً صغيرةً مذهّبةً بأعمدة الرخام، وعليها صُوَرٌ كثيرةٌ لأُناسٍ وحيواناتٍ بما في ذلك الخنازير. وفي مغارةٍ صغيرةٍ خلف المدخل نصب الصليبيون مذبحاً، كانوا يعتبرونه الموضع الأكثر قداسةً في الكنيسة. وكان ذلك المذبحُ مزيَّناً بصورة المسيح والمرأة الجَوَّالة التي جُلبت إليه لكي يعاقبها، فقال لمن حوله: «من كان منكم بلا خطيئةٍ فليرمها بحجر»!

(1) عن كتاب الروضتين 2/ 115، ومفرّج الكروب 2/ 231.

أمر صلاح الدِّين بإزالة كلّ ما أحدثه الصليبيّون بمسجد قبة الصخرة، بحيث تظهرُ الصخرةُ من جديدٍ وتتجلّى روعتُها. وعندما كُشف عنها الزحام، وجدوا أنّ أجزاء منها قد فُقدت. ويقال إنّ قِطَعاً وأجزاء منها كانت تُقطَعُ وتباعُ بالقسطنطينية. وفي مكان المذبح الذي أقامه الصليبيّون، أعاد المسلمون المغارة إلىٰ سابق عهدها باعتبارها مزاراً إبراهيمياً، يؤمنون بأنّه المكان الذي نذر فيه إبراهيم أن يضحّي بولده[1]. وصعد المسلمون إلىٰ أعلى قبة الصخرة، وأنزلوا عنها الصليب المعدني الضخم المذهَّب. وجرى سحب الصليب في الشوارع، وإرسالُهُ إلىٰ بغداد للخليفة، الذي يدين له صلاح الدِّين بالولاء والبيعة رسمياً. وقام الخليفة بتثبيت الصليب في عتبة المسجد الجامع بالمدينة لكي يدوسَ عليه المصلون في دخولهم إلىٰ الجامع وخروجهم منه. أما المسجد الأقصى القائم في الجهة المقابلة، فكان قد تحوّل في حقبة سيطرة الصليبيين إلىٰ مقرٍ إداري وإصطبل للخيل لفرسان الهيكل. وقد قام المسلمون بتنظيفه ورشوه بماء الورد الذي جلبته معها من دمشق شقيقة السلطان، وهيأوه بذلك لإقامة الصلوات فيه من جديد. وكان المسلمون قد وجدوا أنّ محراب الجامع قد تحوَّل إلىٰ مُستراحٍ ومكانٍ للغائط؛ مما اضطّرهم إلىٰ إزالة الجدران التي بُنيت من حوله، وتنظيفه أيضاً، وتعريضه للنور والهواء. وأمر صلاح الدِّين برصفه ببلاطٍ رائع كُتب عليه اسمه، والنص التالي: «بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بإصلاح هذا المحراب المبارك، والمسجد الأقصى الذي أُسّس على التقوى عبد الله وسلطانه الملك الناصر صلاح الدِّين، بعد أن فتح الله على يديه المدينةَ في شهر رجب سنة 583. ويسأل السلطان الله سبحانه رحمته ورضاه، وأن يغفر له ذنوبه وخطاياه برحمته وعفوه». وقد جرت إزالةُ الصُوَر والتماثيل من المسجد بما في ذلك صُوَر الخنازير. وجُلب إليه المنبر الحلبي الخشبي الجميل الذي صُنع سنة 1168م بأمرٍ من نور الدين (محمود زنكي)، منقولاً من دمشق. ووضع

(1) يُجمعُ المسلمون أنّ النذر كان بمكة وليس بالقدس. وترى غالبية المفسِّرين للقرآن أنّ الذبيح إسماعيل وليس إسحق.

المسلمون المصاحف محلّ الأناجيل، كما تضوَّعت في المجلس روائح البخور والطيوب. وبدأ المؤذنون ينادون للصلاة من على سطح الجامع بدلاً من قرع الأجراس والصنوج التي كان المسيحيون يستعملونها لراهباتهم وفرسانهم لسنواتٍ خَلَتْ. وتصاعدت من جديد أصوات القراء الجميلة بسورة الفاتحة في الصلوات والأدعية: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ...﴾.

وكان قد مضى أسبوعٌ على فتح المدينة، عندما تدفق عليها الوجوه والأعيان والأمراء والشيوخ من سائر أنحاء المملكة في مصر والشام، بل ومن العراق. وكان الجميع ينتظرون قرار السلطان بشأن مَنْ سيلقي خطبة الجمعة الأولى بالمسجد الأقصى بعد استعادته ـ وذلك لأنّ خطيب الجمعة في هذه المناسبة التاريخية يحوطه تشريفٌ كبيرٌ من جانب السلطان. ولذلك فقد كان كبار العلماء بالمدينة والقادمين إليها يطمحون للحظوة بهذا التقدير. بل إنّ بعضهم قَدَّم ما يشبه المسوّدة للخطبة آملين أن يقع اختيار السلطان عليهم. لكنّ صلاح الدِّين صرف نظره عن الشيوخ، وعمد إلىٰ اختيار شابٍ في الثانية والثلاثين من العمر، معروف بألمعيته وقُدُراته الخطابية البارزة اسمه محيي الدين (ابن الزكي)، كان قاضياً بحلب. وقد عينه فيما بعد قاضياً بدمشق، (وكان معجباً به ليس لقدراته النثرية والخطابية وحسْب)؛ بل ولصنعته واقتباساته الشعرية الحماسية. فقد تنبَّأ في قصيدةٍ له من قبلُ بفتح القدس على يد السلطان بعد استيلائه على حلب، وقلعتها الشهباء. ومن أجل ذلك فقد ربط نفسَه نهائياً بصلاح الدين ومشروعه للتحرير:[1]

وفتحُكم حلباً بالسيف في صَفَرٍ مبشِّراً بفتوحِ القدسِ في رجبِ

(1) قائلُ البيت الشاعر ابن سناء المُلك، وهو مطلعُ قصيدةٍ يهنّىء فيها صلاح الدين بأخذ حلب، ويبشّره بفتح القدس. وقد استشهد به ابن الزكي هنا؛ قارن بديوان ابن سناء المُلك، ص 9 – 16. وقارن بما جاء في ص 31 من هذا الكتاب.

صعد محيي الدين إلىٰ المنبر بالجبة السوداء، التي أُهديت إليه من الخليفة العباسي ببغداد. وما خيَّب ابن الزكي ظنَّ الحضور. فخلال ساعةٍ بعد ارتقائه المنبر راح الخطيب يشيد بذلك النصر التاريخي في لغةٍ عالية البلاغة، مازجاً البشرى بالحمد لله والشكر له على النصر، مستحضراً الآياتِ القرآنية، والأشعار، والتاريخ الإسلامي الأول. وهكذا فقد وضع الأساس الأخلاقيّ للإشادة بهذا العمل الذي يُرضي الله عن المجاهدين الأحياء المنتصرين الفرحين، والآخرين الذين يلبسون الخُضرة في جنات النعيم.

«.. إياكم أن يستذلَّكم الشيطان... فيخيّل إليكم أنّ هذا النصر بسيوفكم الحداد، وبخيولكم الجياد، وبِجلادكم في موضع الجِلاد. واللهِ ما النصرُ إلاَّ من عند الله. إنّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ»[1]. ثم شرح محيي الدين أهمية القدس في الإسلام، وذكَّر مستمعيه بقداسة المدينة؛ إذ إنّ النبيّ وجَّه المسلمين إليها في الصلاة في أول الإسلام فكانت أُولى القبلتَين. ومَثَّلَ للمدينة المقدَّسة بمَثَلِ الإبل الضالّة التي أُسيءَ إليها من جانب الكفار والمشركين لما يقرُبُ من مائة سنة حتى استُعيدت بفضل الله وتوفيقه: «أبشِروا برضوان الله.. وتطهير هذا البيت الذي أَذِن الله أن يُرفَع ويُذكَرَ فيه اسمُه..». وقارن بين التوحيد الإسلامي، والتثليث المسيحي، مقتبِساً القرآن بهذا الشأن: «وأشهدُ أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريكَ له. الواحد الأحد. الفرد الصمد. الذي لم يلدْ ولم يولد. ولم يكنْ له كفواً أحد». ثم أوضح الموقف الإسلاميَّ الصحيح من المسيح، النبي، المشرَّف والمصطفى من الله دونما رفعٍ له عن رتبة الإنسانية. ثم إنه لم يتجنّبْ موضوعَ الثأر: «..الجهادَ الجهادَ فهو أفضلُ عباداتكم وأشرف عاداتكم. أنصُروا الله ينصركم. اذكروا الله يذكُرْكم. اشكروا الله يزدْكم

(1) نصُّ الخطبة في كتاب الروضتين 2/ 110 - 111، ومفرّج الكروب 2/ 218 - 228. والنصوص اللاحقة مأخوذة من المصدرين (المترجم).

ويشكركم. جدّوا في حسم الداء، وقطع شأفة الأعداء، وتطهير بقية الأرض، واقطعوا فروعَ الكفر واجتثوا أُصوله». وأنهى خطبته بالثناء على صلاح الدِّين: «سيفك القاطع، وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك المُدافع، والذابّ عن حرمك وحرم رسولك المُمانع. . جامع كلمة الإيمان، وقامع عَبَدة الصلبان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإِسلام والمسلمين، مطهّر البيت المقدَّس. . . محيي دولة أمير المؤمنين».

كانت الخطبة بالغة الروعة والتأثير. وقد وصفها أحد الحضور بأنّها كانت بليغةً ورائعةً، غنيةً، وواضحة.

استغرق جلاءُ الصليبيين الحزين عن القدس زُهاء الأربعين يوماً. وعلى كل بابٍ من أبواب المدينة وقف أميرٌ يستوفي من الخارجين ما جرى الاتفاقُ عليه. وسرعان ما ظهرت سوقٌ سوداءُ إِلىٰ جانب الجهات الرسمية. وصارت الرشوة عامةً وظاهرة. وقد استطاع بعض المسيحيين الفرار عبر الأسوار بالحبال، كما استطاع آخرون الخروج بدون فديةٍ ضمن صناديق المتاع. واستخفى فريقٌ ثالثٌ في ملابس عسكريين مسلمين. وقد اضطر كثيرٌ من الصليبيين إِلىٰ بيع كل ما يملكونه بأسعارٍ بخسةٍ من أجل دفع الفدية التي كانت كبيرةً على البعض. وجرى تجريد الكنائس من الذهب والأقمشة الثمينة والأشياء القيمة للاستعمال في الفداء. بيد أنّ الكهنة احتجنوا الكثير أيضاً ولم يستعملوه في فداء الأسرى؛ بل آثروا أن يبقى من ضمن ثروات الكنائس. وكان البطرك إيراكليوس أسوأَ مثالٍ على ذلك؛ فقد استلب هو نفسه خزائن كنيسته. إذ جرَّد حتى جدران الكنائس من صفائح الذهب. وقد شكا مساعدٌ لصلاح الدِّين من جشع الكهنة؛ قال: «ذكرتُ للسلطان أن هذه أموال وافرة، وأحوال ظاهرة تبلغ مائتي ألف دينار، والأمان على أموالهم لا أموال الكنائس والأديار، فلا تتركها في أيدي هؤلاء الفجار. فقال: إذا تأوّلْنا عليهم نسبونا إِلىٰ

الغدر. . . فنحن نجريهم على ظاهر الأمان؛ ولا نتركهم يرمون أهل الأيمان بنكث الأيمان، بل يتحدثون بما أفضيناهُ من الإحسان»[1].

ومع كلّ الصفقات والرشاوى، وما دفعته الكنيسة، فقد بقي عدة أُلوفٍ بدون فدية، وبيعوا باعتبارهم عبيداً. بيد أنّ قلب صلاح الدِّين ما كان مع هذه التجارة بالبشر. ولذلك فقد ظلّ منفتحاً على مقترحات اللحظة الأخيرة. وقد ناشده البطرك أن يُطلق سراح خمسمائة من الأسرى الفقراء العاجزين عن دفع الفدية. وبذلك كسب خمسمائة جدد حرياتهم. وطلب المسيحيون الأرثوذكس أن يبقوا بالمدينة؛ وقد أذِن لهم صلاح الدِّين بذلك، وأعفاهم من الفدية، وطلب إليهم أن يدفعوا ضريبة الرؤوس فقط؛ كما سمح لهم باستلام الذخيرة المقدَّسة، وبشراء أمتعة الصليبيين المغادرين. وقد أُطلق سراح خمسمائة أرمني لمجرد أنَّهم أرمن. وهناك ألفٌ آخرون أُطلق سراحُهُم أيضاً؛ إذ قيل إنهم ضيوفٌ بالمدينة أتوا من الرُّها. وقد سُمح للملكة سبيلا وأعضاء بلاطها بمغادرة المدينة، مثلما سُمح أيضاً لامرأة ريجنالد أن تفتدي نفسَها بعد أن كان زوجُها قد قُتل. وقد كان صلاح الدِّين معروفاً بشفقته على النساء اللواتي توفي عنهن أزواجهن، والأُخريات اللواتي كنَّ زوجاتٍ لأسرى في سجون المسلمين. فقد كان صلاح الدِّين يطلق سراح الأزواج بدون مقابل، كما أنَّه كان يغمُرُ المحرَّرين بهدايا كثيرة. ومثل صلاح الدِّين كان شقيقه وخليفته الملك العادل، الذي تضامن مع اللاجئين، وطلب لهم الكثير: «سيدي! لقد ساعدتُك على فتح هذه البلاد، ودخول القدس: فهل تستطيع إعطائي ألف عبدٍ من الفقراء؟!»، ومنحه صلاح الدين ألف أسيرٍ كان يعرفُ أنه سيحررهم جميعاً.

حاول باليان شراء الوقت للوصول إلىٰ إطلاق سراح أعدادٍ أخرى، فقد اكتشف أنّ صلاح الدِّين في أعماق قلبه يريد تحريرهم جميعاً. لكنّ تحرير

(1) عن الكامل لابن الأثير 11/ 208، وكتاب الروضتين 2/ 96، ومفرّج الكروب 2/ 216.

الأسرى بدون مقابل توقف عندما اكتُشف رجلٌ يحاول تهريب ذَهَبه داخل زِقٍّ خمر. فقد أوقفه ضابطٌ على أحد أبواب المدينة، دون اشتباهٍ أنه يُخفي شيئاً، وقال له: «بسبب الخمر وشربها أخرج الله المسيحيين من القدس». وأخيراً، وبعد شتى أشكال التحرير، بقي ثمانية آلافٍ للإرسال إلىٰ العبودية. وعرض باليان والبطرك أن يضعا نفسيهما في الأسْر لصالح الثمانية آلاف. لكنّ السلطان لم يوافق: لا أستطيع تحرير ثمانية آلاف مقابل اثنين! وبذلك توقفت المفاوضات. ومن بين الأسرى تميزت النساء. فالكاتب العربي عماد الدين وجد أنّ صراخ النسوة ونواحَهنّ مُسَلٍ وشائق! إذ كان ينظر إلىٰ كل النساء الأوروبيات باعتبارهنّ فاسداتٍ وخبيثات ومملوءات بالشهوات، ومستعدات لتخطّي الأعراف الأخلاقية. ولهذا فإنّ أدنى خاطرةٍ حولهنّ كانت تدفعُهُ للتفكير في الجنس والاستثارة. فالنسوة الأوروبيات متكبرات ومحتقِرات، شهوانيات ومرتكِبات، ثائرات ومثيرات، راغبات ومرغوبات، سوداوات العين كبقر الوحش.. ويقدمن لمحبيهن ما احتفظن به في صدورهنّ. النسوة اللواتي كنّ يبكين وينُحْن على أحبابهنّ وأولادهنّ وأزواجهنّ، هنّ اللواتي أثرن الكاتب: «فكم محبوبة هُتكت وما كانت مُلكت، وعزباء نُكحت، وعزيزة مُنحت، وعذراء افتُرعت، وغالية استُرخصت، وغانية استحاضت...»[1]. وبسبب كثرة اللاجئين فقد قُسِّموا إلىٰ ثلاث فِرَق: ففرسان الهيكل والإسبتارية أُعطوا الرقابة على الآخرين في السجن، لكنّ الوضع بشكلٍ عامٍ ما كان مُريحاً؛ ولذلك كانوا يعملون تحت توجيه حراسٍ مسلمين. وغادر باليان والبطرك بحراسةٍ ورقابةٍ مشدّدتين من جانب الحراس. فباليان كان في آخر العربة المغادرة التي كان البطرك يجلس في مؤخرتها ويضرب أخماساً بأسداس نتيجةً لضخامة الثروة التي أحضرها معه مخبَّأة. وقد جرت مرافقة المحرَّرين إلىٰ حدود الدولة الإسلامية.

(1) عن الفتح القسّي، ص47.

لكنْ عندما عاد الحراس المسلمون وجدوا أنّ اللصوص قد سطوا على القافلة ومحتوياتها.

وانتشر الخبر بسقوط القدس في الغرب. وظهرت أُغنيةٌ شعبيةٌ في رثائها:

راحيل تبكي ثانية،

من يلد صبياناً،

عليه أن لا يحمد رحمه (إشارة إلىٰ سفر التكوين 30: 1/ 2).

سقط الهيكل. والمعبد الذي كان شعبُ المدينة يملؤه

يقبع الآن مسلوباً (سفر المراثي 1: 1).

هكذا سلك جنود صلاح الدِّين سلوكاً مثالياً في احتلالهم للقدس سنة 1187م. وقد نظر صلاح الدِّين لنفسه وسمعته بعدم الانتقام لما فعله الصليبيّون في الحرب الأولى سنة 1099م. وبسبب حمايته لكنيسة القيامة، وأماكن مسيحية أخرى كثيرة، سيتذكر الجميع تسامحه تجاه أهل الأديان الأخرى، وتجاه الأماكن المقدَّسة للدين المسيحي. ويبدو أنّ أفعاله اعتُبرت عَلَماً ونموذجاً على كيفية سلوك المسلم الصالح. فبسبب عفوه، ووجوه الخير المتعددة في طبيعته، وسلوكه تجاه أعدائه، سيظل مشهوراً إلىٰ الأبد باللطف والتسامح والحكمة.